ابن زيدون

- ٣ -

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لانثقل هذه الرسالة عن سابقتها في محاسنها حتى يمكن ان نثبت كل ما ذكرناه من محاسن تلك في هذه .

ولم يتعرض شارحها ابن نباتة لشيء من معايبها كما فعل الصفدي في شرح الجدية غير انها لا تخلو من بعض وجوه النقد .

فمما يؤخذ عليه فيها :

١ — سرد فقارها على أسلوب واحد في كل فصل من فصولها فيقول مثلاً :

ان فلان المشهور انما فعل فعله العظيم بسببك ومن اجلك بحيث لا يتعلم منها الناشي المتأدب تنويع أساليب .

٢ — ومنها الاسفاف في العبارة حتى تكون أشبه بعبارة الفقهاء ومؤلفي القواعد منها بعبارة الادباء في الترسل . وماحمله على ذلك التعسف الا قصد إدماج قصة في فقرة او سجعة مثل قوله (وان احتيال هرم الخ) .

٣ - ومنها إعادة ذكر الرجال المضروب بهم المثل .

٤ — ومنها خلط علماء فن بعلماء فن آخر من غير ضرورة .

٥ — ومنها المعاجزة في امور واقعة من كثيرين بحيث لا يمكن تعيين واحد منهم للمعاجزة به كقوله « وانك الذي ... ناظر في الجوهر والعرض الى آخر هذا الفصل — وكلامه فيه كله تهافت ولغو خرج به عن الغاية التي قصد اليها وهي المعاجزة برجال مشهورين . وهذا الفصل اضعف فصوله في الرسالة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦ — وقوله « ورجح بين مذهبي ماني وغيلان » — ولا موازنة بين المذهبين لان الاول ثنوي مجوسي والثاني قدري يتأول في الاسلام .

٧ — سرد الأمثال بدون ربط والجمع بينها لادنى ملابسة كقوله « فكدمت في غير مكدم الخ » .

٨ — سوء تعبيره في قوله « ونخرت و بسرت وعبست فكفرت » على لسان اديبة متظرفة مع فظاعة كلمة « نخرت » و بشاعة لفظ « كفرت » .

٩ — اقذاعه فيها بذكر العورات والفحش وبما لا يليق ان يصدر عن وزير الى وزير او عن عذراء اديبة الى وزير كبير .

هذا الى هفوات أخرى اعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة .

اسلوب الرسالتين اتباع لا ابتداع

يظن كثير من متأدبي زماننا ومن قبلهم ان أسلوب ابن زيدون في الرسالتين السالفتين غير مسبوق اليه وهو غير صحيح في جملته . ونعم اننا لم نقف على رسالة مطولة كلها مضرب امثال برجال او اقوال اومشهور افعال ولكننا نجد فصولاً كثيرة من رسائل المتقدمين صبت على هذا القالب من الكلام . والظاهر ان الاصل في هذه الغاية رسالة التربيع والتدوير التي وضعها الجاحظ في صفة احمد بن عبد الوهاب والتهكم به ثم نسج على منواله كثيرون في فصول من رسائلهم . ومنهم ابوبكر الخوارزمي وابو حيان التوحيدي والبديع فان ابن زيدون انحى جانبهم في المعاجزة والموازنة بمشهوري الرجال في رسالتيه وبخاصة الهزلية ، فاما حمله لمشهور الشعر ، واقتباسه من مأثور النثر ، فهي طريقة اهل زمانه في المغرب والمشرق : طريقة ابن العميد وحلبته التي انتقلت الى الاندلس ، واولع اهله بها ، غير انه كان يخالفها في عدم التزام السجع ، وفي الاستكثار من الامثال وحوادث التاريخ في رسالتيه ، وان كان في الهزلية اسجع .

وهاك أمثلة من فصول من ذكرنا من المتقدمين في رسائلهم :

فمن رسالة الجاحظ الآنفة فصل يعاجز به احمد بن عبد الوهاب و يتهكم به بمقايسته برجال اعلام قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول ابا جعفر وتخاشنه ، وتنافره وتراهنه ، ثم لا تفعل ذلك الا في المحافل العظام ، وبحضرة كبار الحكام ، ثم تستغرب ضحكاً من طمعه فيك ، وتعجب الناس من مجاراته لك ، واشهد انك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتماثله ، ثم تظارفه وتطاوله ، وتغني مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظّام ، وتستبرد الأصمعي ، وتستغبي قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتبارز ابا الحسن علي بن ابي طالب رضي الله عنه » .

وفصل منها ايضاً يصفه بقدم العمر قال :

« فيا عقيد الفلك كيف امسيت ، و ياقوة الهيولى كيف اصبحت ، و يا نسر لقمان كيف ظهرت ، و يا اقدم من دوس ، و يا اسن من لبد ...

حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذ كم مات عوج ، ومتى تبلبلت الالسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم في السفينة الخ الخ » .

ومن فصل له فيها :

« وكيف وقد اصبحت وما على ظهرها خود الا وهي تعبر باسمك ، ولا قينة الا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة الا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة الا وهي تنقب أخرق لمرك ، ولا عجوز الا وهي تدعو لك ، ولا غيور الا وقد شقي بك ... ولوادركت ابن الخطاب لصنع بك اعظم مما صنع بنصر بن حجاج ، ولركبك باعظم مما ركب به جعدة السلمي ، بل لدعاه الشغل بك الى ترك التشاغل بهما ، والغيظ عليك الى الرحمة لهما الخ » .

ومن فصول ابي بكر الخوارزمي « ووفاته سابقة لوفاة ابن زيدون بنحو ثمانين سنة » .

فصل يستعجز نفسه عن امكان عتاب صديق له قال :

« واني لآخذ القلم لا كتب به عتابك فيتشظى عليّ ، و يسقط من يدي ، و كيف تساعدني بناني ، على ما يخالفني فيه جناني ، و كيف يطيعني بعضي فيما يعصيني فيه كلي ، ولو كنت احمد بن يوسف في البلاغة ، وعبد الحميد في اتساع الكتابة ، وجعفر بن يحيى في الاختصار ، وابا الربيع في التوسع والاكثار ، وابا العيناء في العارضة ، وابا العتاهية في البديهة ، وابن المعتز في التشبيهات ، وابا نواس في الخمريات والطرديات ، والعتابي في المعاتبات ، والنابغة في الاعتذارات ، وصريع الغواني في الاستعارات ، والفرزدق في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفخريات ، وجريراً في المهاجاة . وغلبت في الخطابة صعصعة بن صوحان ، وقمت في الفصاحة خالد بن صفوان ، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلاً ، وأتيت بعجوز آل رقيبة مبتدعاً ، وبعذراء آل خارجة مقتضباً ، وضرب بي المثل في المقامات لابسحبان وائل ، وبوهي به في العي عندي لا بباقل ، وحفظت حفظ الشعبي ، وحاضرت محاضرة ابن القرية النمري ، وابدعت إبداع ابي تمام الطائي ، ووعظت عظة الحسن البصري ، وجادلت جدل النظام في الكلام ، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل ، واربيت على اياس ابن معاوية في الذهن والعقل ، وبهرجت الاصمعي رواية ، وزيفت اباعبيدة حفظاً ودراية وعلمت امير المؤمنين عليه السلام الحلال والحرام ، ولقنت شريحاً القضاء والاحكام ، وصرت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم ، ووفقت توفيق سليمان في الحكم ، واخذ عني بطليموس علم الهيئة ، وارسطاطاليس علم الفلسفة ، وبلنياس باب الطلسم والحيلة ، وقرأ على سيبويه نحو البصريين ، والفراء نحو الكوفيين ، واختلفت الى الهند في تعليم الحساب ، ودرس عليّ ابو عثمان المازني علم التصريف والاعراب ، واقتبس مني الخليل عروض الشعر ، وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر ، وضرب على قالب خطي خط ابن مقلة ، وتوارث الكتابة اهل بيتي كما توارثها بنو ثوابة ، وأمليت على ابن الكلبي شجرة النسب ، وعلى ابي عمرو بن العلاء ايام العرب ، وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، وكنت الذي عنده علم من الكتاب ، وعددت في الراسخين في العلم عدا . وقال لي موسى هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشداً ، ثم حملت بعد هذا كله على ان يمضي بي في عتاب الاخوان لساني . او يجري فيه بناني . لقصر عن ذلك عناني . ولارتبك فيه عقلي وبناني . ولعيبت والحق معي وانقطعت والحجة لي الخ . وللبديع قريع الخوارزمي فصل يشبه هذا .

ولابي حيان التوحيدي « وهو من اهل عصر الخوارزمي والبديع » فصل من كتابه في ثلب الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد ينكر فيه على ابن عباد تكلفه نسخ أجزاء مطولة من رسائله فاعتذر وقال له ان في امكانه ان يجمع غررها فحقدها عليه الصاحب وتنكر له — وهذا الفصل حاكاه ابن زيدون في الجدية . قال ابوحيان :

« فقال (اي ابن عباد) : طعن في رسائلي وعابها ، ورغب عن نسخها وازرى بها ، والله لينكرن مني ماعرف ، وليمرفن حظه اذا انصرف — حتى كأني طعنت في القرآن ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

او رميت ... بخرق الحيض ، او عقرت ناقة صالح ، او ... بي بئر زمزم ، او قلت كان النظّام مأبونا ، او مات ابوهاشم في بيت خمار ، او كان عباد معلم صبيان ، وما ذنبي ياقوم اذا لم استطع ان أنسخ ثلاثين مجلدة الخ الخ .

ولا يظنن القارئ لهذا الكلام انه تمايزري بابن زيدون ! فقليل من الناس من ينظر الجيد فيحكيه ، ويستمع القول فيتبع أحسن ما فيه ، ولو كانت العبرة ممكنة لكل احد لقلّ الجهل ، وارتفع الخطل من القول . ولولا ان بفيد الآخر علماً من الاول ، ويولد المحدث معنى من المخضرم ، لقد بطلت الصناعات ، وماشهدنا هذه الحضارة الباهرة .

* * *

تأثير الرسالتين في الادب والمتأدبين

لم يخل عصر من العصور التي تلت عصر ابن زيدون حتى عصرنا هذا من حفظة كثيرين لهاتين الرسالتين لاشتمالهما على كثير من مادة الكاتب الاديب ، فوق جزالة لفظهما وحصافة عبارتهما ، فهما معدودتان من اقرب الذرائع التي يتخرج بها المتأدب والكاتب ، ولا أدل على ماقلنا من عناية أعلام الادباء بشرحهما ومعارضتهما واحتذاء حذوهما .

فمن الشراح صلاح الدين الصفدي شرح الرسالة الجدية أبدع شرح ، لم يقتصر فيه على حل المعنى وشرح الغريب وسوق الملح المناسبة للمقام ، وتراجم الاعيان الذين اشارت اليهم الرسالة حتى تعدى ذلك الى النقد الطريف . وذكر بعض ما عورضت به من الرسائل . وقد اقتبس شرحه من هذا الشرح الشيخ حمزة فتح الله في المواهب . ومنهم الشاعر الكاتب ابن نباتة المصري شرح الرسالة الهزلية بما لا يقل كثيراً عن شرح الصفدي للجدية وطبع الشرح الاول ببغداد والثاني مراراً بالقاهرة .

وممن عارض الجدية مضاهياً بعض فصول الهزلية شيخ الانشاء بالديار المصرية و يعسوب الحلبة الفاضلية محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر عارضها برسالة أطول منها كتب بها الى الامير ناصر الدين بن شاور الكناني المعروف بابن النقيب سنة ٦٥٣ في معنى شخص انتقصه عنده بسبب التواضع وهو ينسب الى رفض قال في مفتتحها .

« بلغني أعزك الله ، ولا برحت رحيب فنـاء الفخر ، فشيب ملبس العمر ، يانع ثمرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشكر ، مفعم حياض البر ، ان فلاناً غض مني كل غض الجنى ، وانه عبث بي عبث الايام بالمنى ... الى ان قال :

« والذي أقول له مخاطباً ، واوجه اليه مجاوباً ، ان كان استرسالك أيها العابث عبثاً فما كل الافاعي تعبث بها الانامل ، ولا كل المراعي ينصب بها الحبائل ، ولا كل زخار يخاض ، ولا كل جناح يهاض ، ولا كل جامح يراض ، ولا كل سابغة تفاض الى ان قال :

« وعندي اني لااستحل ان آكل لقمة لك ولا بعد ثلاث ، ويعجبني ان تحفر لي بئراً تقع فيها ولا يعجبني ان أقع فيك ، متى كانت الاسود مثل الثعالب ، وأعود الى محافقة فتعود الى اظهار اللبس ، فأقول : هل انت يافلان الامتخرص بزور ، وآيس من الخير كما يئس الكفار من أصحاب القبور . وآمن من العواقب ولله عاقبة الامور . وما مبالاتي بك الامبالاة الديك بالبط ، والشمعة بالقط ، ورماح الخط بافلام الخط ... ومامبالاتي الا مبالاة آدم بعدم سجود ابليس ، ولانضرري منه الانضرر الصرح الممرد بوطء بلقيس أم هل أبالي بك الا مبالاة البازي بالحمام ، والليث بالنفاف الخيس . ومتى كانت همدان تفخر على كليب ، اوتحذر منها الكيد . ام متى خاف الاسد من ابي زيد ... » ولم يزل يعارض فصلاً منها بفصل حتى اتى على القصيدة الميمية المختتمة بها رسالة ابن زيدون فعارضها بمثلها في الروى والبحر والاسلوب قال في ابتدائها :

العلا في ارتشاف در العلوم والحلى في اتشاح در الحلوم
والتناهي في فعل كل حميد والتباهي بكل خل حميم

وممن حاكى ابن زيدون في رسالتيه الصلاح الصفدي في ترجمته امام النحاة في عصره ابا حيان الاندلسي الجياني في كتاب أعيان العصر وأعوان النصر قال بعد ثناء كثير :

« فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضاً غير محبب ، اوعيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو محدب ، اوالخليل لكان بعينه قذاة ، اوسيبويه لما تردى من مسألته الزنبورية برداء ، اوالكسائي لاعراه حلة جاهه عند الرشيد وأناسه ، اوالفراء لفر منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه ، اواليزيدي لما ظهر نقصه من مكامنه ، اوالاخفش لاخفى جملة من محاسنه ، او ابوعبيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية ، او ابو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التملق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعربية ، اوالسكري لما راق كلامه في المعاني ولاحلا ، اوالمازني لما زانه قوله ، ان مصابكم رجلا ، او قطرب لما دب في العربية ولادرج ، اوثعلب لاستكن بمكره في وكره ولماخرج الخ » . وجرى على هذا النحو حتى اكمل الترجمة .

الى هنا قد عرفت خاصة كتابته في الرسالتين ومن اي معين استساغ نهلها ، واستطاب عللها ، وكتابته في غيرهما لا تخرج عن هذه الخاصة في الجملة من حيث عدم التزام السجع والتمثل بالامثال ، ولكنها أقرب الى الطبع وابعد من التكلف .

وهاك نموذجاً منها :

كتب الى بعض اصحابه وهو الاديب ابو بكر بن مسلم لما اختفى بقرطبة بعد فراره رسالة يعتذر فيها عن فراره فمنها .

أبدأ اولاً بشرح الضرورة الحافزة الى ماصنعت اذ بلغني انك احد اللائمين لي ، ومن أمثالهم « هان على الاملس مالاقى الدبر » وأعاتبك على انفصالك عني وبراءتك امد المحنة مني ، عسى ان نتلافى عوداً ماأضعت بدءا ، وان كنت في ذلك « كذابغة وقد حلم الاديم » فمنفعة الغوث قبل العطب ، وفي علمك اني سجنت مغالبة بالهوى وهو اخو العمى . وقدنهى عنه تعالى فقال تعالى « ولا تتبع الهوى الآية » وشهد عليّ فلان الناشر لأذنيه طمعاً ، ليأكل بهده جشعاً ، وقال فكان القول ماقالت حذام ، وليتني مع قبول مالاتحل شهادته عليّ ، يعذر فيه اليّ ، ولم يقرن الحشف بسوء الكيلة وكنت اول حبسي بموضع جرت العادة بوضع مستوري الناس وذوي الهيآت منهم فيه ، وفي الشر خيار ، وبعضه أهون من بعض ، ثم نقلت بعد حيث الجناة المفسدون ، واللصوص المقيدون ، ومنع مني عوّادي ، فشكوت الى الحاكم الحابس لي فصم عني ، ولو ذات سوار لطمتني .

وانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

ولم أستطع صبراً ، وعلمت ان العاجز من لايستبد ، فالمرء يعجز لا محالة ولم أستخر ان اكون ثالث الأذلين العير والوتد ، وذكرت ان الفرار من الظلم والهرب ممن لايطاق ، من تشريع المرسلين . وقد قال تعالى على لسان موسى عليه السلام « ففررت منكم لما خفتكم » فنظرت في مفارقة الوطن اذ قديماً ضاع الفاضل في وطنه ، وكسد العَلَق[1] النفيس في معدنه .

(١) كذا في الاصل ولعله العِلْق النفيس في معدنه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما قال :

أضيع في معشري وكم بلد يعود عود الكباء من حطبه

فاستخرت الله في انفاذ العزم . وانا الآن بحيث أمنت بعض الامن الا ان السعي لم يرتفع . ومادة البغي لم تنقطع .

وفي صدد هذه الرسالة يقول ايضاً :

ولقد كان من محاسن الشيم ، وشروط المروءة والكرم ، ان يهب لي ماانكر لماعرف ، ويغفر ماسخط لمارضي ، ويدفع بالتي هي أحسن ، ويؤثر الذي هو أجمل وأرفق ، و يتوقف عندما نص له من سعاية ، وزف اليه من وشاية ، فان كان باطلاً ألقاه ، وفضح مخبر المتقرب به وأقصاه ، وان كان حقاً صبر صبر الحليم ، وأغضى اغضاء الكريم ، وقبل انابة المعتب ، واقتصد في مؤاخذة المذنب ، فقدم التوقيف ، قبل التثقيف ، والتأنيب قبل التأديب ، فان الرفق بالجاني عتاب ، والحر يلحى والعصا للعبد .

ومنها : وقد هجرت الارض التي هي ظئري ، والدار التي كانت مهادي ، وغبت عن أم انا واحدها ، تمد أنفاسها شوقاً الي ، وتغض أجفانها حزناً علي ، والله يرى بكاءها ، ويسمع لي على من كلني نداءها ، فالاستجابة مضمونة للمخلص والمظلوم ، وقد حملت السمتين ، واستوجبت الصفتين ، ولتكن بغيتك التي تدخرها عليها كلمة تأمين ، واشارة الى تأنيس وتذكير ، تراجعني بهـا فأظهر بحيث انا آمنا ، وألقي العصا مطمئنا ، فان وجدت محزاً لشفرة ، فالعوان لا تعلم الخمرة ، وان اشبهت الليلة البارحة أعلمني بذلك فطلبت الأمن في مظانه وتقربت السلامة في مواطنها ، وصبرت حتى يحكم الله لي وهو خيرالحاكمين .

شعره

منزلته في الشعر — ان أدباء الاندلس وان غلب عليهم قرض الشعر لم يبلغوا فيه غاية فحول المشرق ، وان نوابغهم يجيئون دائماً مصلين لامجلين ، اذا علمت هذا فهمت ان قول من يقول من أدبائهم ومؤرخيهم بان ابن زيدون ليس معناه انه يراجح البحتري في ميزان البراعة ، الا اذا انقلب التشبيه فكان المشبه أقوى في وجه الشبه من المشبه به ، وانما يعد بالاضافة الى شعراء الاندلس في طوالع الرعيل الاول ، وانه يجري على طلقه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في انتحال الصقيل من اللفظ ، والمنسجم من الاسلوب ، وفي ترقيق الغزل ، وبث حديث النفس وشكوى الغرام ، لا سيما في كثير من فنون الشعر التي أبدع فيها البحتري اي ابداع كالوصف والمديح ، فكان أشبه به من غيره من الاندلسيين ، وكان بذلك بينهم سباق غايات وطلاع انجد .

اما نحن فمع حسن تقديرنا لمقال أدبائهم فيه وبعد قراءتنا ديوانه المحفوظ في دار الكتب المصرية بالقاهرة نجعله في درجة ابن عبد ربه وابن دراج وابن عمار وابن خفاجة اي في الطبقة التي تلي طبقة ابن هانئ الاندلسي ، واذا قلنا ذلك فقد قلنا انه من شعراء الطبقة الاولى الاندلسيين اذ كان ابن هانئ في منزلته مقطوع القرين .

وتبوء ابن زيدون هذه المكانة في الشعر لا يستوجب له نظيرها في النثر ، فان امتلاك ناصية الصناعتين غاية لا تدرك .

من أجل ذلك لم يعرفه الاندلسيون كاتبا بقدر ما عرفوه شاعراً فلم يخض مترجموه منهم في نثره كالذي خاضوا في شعره ، وانما الذي جعل شهرته بالنثر عند المشارقة تنسخ شهرته بالشعر عند المغاربة ، انه راقهم منه سعة اطلاعه وقوة استحضاره لمأثور الكلام والاستشهاد به ، لا قوة بلاغة نثره في ذاتها ، فان احد المعجبين به من شارحي رسائله وهو ابن نباتة المصري يقول في ترجمته له : « ونظمه أمكن عند النقاد وأجود من نثره » الى ان قال : « فأما نثره فانه اكثر فيه من استعمال أمثال العرب وجل اشعار المتقدمين والمتأخرين الى ان قيل ان رسائله أشبه بالمنظوم من المنثور وعلى ذلك فقد دل بها على اطلاع معجب واستحضار معجز » واطلاعه هذا واستحضاره هما اللذان خولاه وضع رسالتيه الجدية والهزلية بصورة تجعل كلتاهما وفضة أدب وجعبة أخبار ، لتعجل التحصيل من نشإ المتأدبين ، فاستظهروهما فيما يستظهرون ولولاهما ماعتبره المشارقة الا في عداد الشعراء لا الكتاب .

صفة شعره — قل غرض من اغراض الشعر وفنونه لم يضرب فيه ابن زيدون بسهم . ولكن المتفق عليه عند اهل الادب ونقاد الشعر ان أجود شعره ما قاله في الغزل وشكوى الفراق . فقد سارت له في هذا الباب قصائد ومقطعات استعذبها المغاربة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمشارقة فحفظوها وتغنوا بها . فمنها قطعة يقولها في وداع ولادة بعد انصرافها من زيارة قال :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت اشكو قصر الليل معك

وهذه الابيات عكس نسبتها المقري صاحب نفح الطيب فجعلها لولادة في ابن زيدون فقال في اثناء ذكره أخبار ولادة « وكتبت اليه لما أُولع بها بعد طول تمنع .

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل اكتم للسر
وبي منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

ووفت بما وعدت . ولما أرادت الانصراف . دعته بهذه الابيات . ودع الصبر الخ »
والعجب انه وافق كل من روى قصة هذه الزيارة من ان الزائرة ولادة والمزور ابن زيدون بدليل قوله « ولما أراد : الانصراف » ولم يفطن لما رواه في القطعة .

يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطا اذ شيعك

فا ـ الذي يشيع هذا المزور المقصود لا الزائر المنصرف .

وان سلمنا جدلاً صحة روايته — وهو لم يذكر مصدرها — اضطررنا لتأويل أن الزيارة لم تكن في دار احدهما بل كانت في فضاء بعيد عن منازلها بحيث يتأتى ان تساير ولادة ابن زيدون الى ناحية داره بما يحتمل ان يسمى تشييعاً ولكن كان على رواة القصة ان يسموها تلاقياً على موعد . على انه يأبى هذا الفرض ان الزيارة كانت ليلاً فكيف تشيع فتاة عذراء من بنات الملوك بعد دل وامتناع في آخر الليل وفي ضاحية من المدينة رجلاً محباً لم تزره الا بعد ان أعياه الجهد في استزارتها ؟ ولئن كان ما فرض واقعاً كان ابن زيدون أنذل عاشق علمنا .

ولعل الذي صدق على المقري ظنه ورود ذكر المقولة فيه الابيات بلفظ المذكر غير ان المقري وهو المطلع العظيم قرأ لابن زيدون شعراً كثيراً كني فيه عن ولادة احياناً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بلفظ المذكر الواحد والجماعة تعمية للوشاة والرقباء كما صرح بذلك مراراً في شعره .

ومن غزلياته قوله :

يا قمراً مطلعه المغرب ... قد ضاق بي في حبك المذهب
الزمني الذنب الذي جئته ... صدقت فاصفح أيها المذنب
وان من أغرب ما مر بي ... ان عذابي فيك مستعذب

وقوله وهو من أرق ما سمع في هذا الباب :

يا نازحاً وضمير القلب مثواه ... أنستك دنياك عبداً انت دنياه
الهتك عنه فكاهات تلذ بها ... فليس يجري ببال منك ذكراه
عل الليالي تبقيني الى أمل ... الدهر يعلم والايام معناه

وقوله في ذكرى ولادة والشوق اليها وتضمن وصفاً بديعاً :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ... والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنما رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما حلت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى بنافجة نيلوفر عبق ... وسنان نبه منه الصبح احداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم ... لكان من اكرم الايام اغلاقا
لا سكن الله قلباً عند ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا ... وافاكم بفتي اضناه مالاقى
كان التجازي بمحض الود مذ زمن ... ميدان انس جرينا فيه اطلاقا
فالآن احمد ما كنا لعهدكم ... سلوتم وبقينا نحن عشاقا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أشهر غزلياته وأسيرها شرقاً وغرباً قصيدته النونية التي تعتبر مثالاً جميلاً للشعر الاندلسي وقل أديب لم يحفظها او شيئاً منها . وهي مذكورة في كثير من كتب الأدب ومجموعات الشعر . قال ابن نباتة فيها « وقد تداولتها الألسن وزيد فيها ما كانت غنية عنه » . وأولها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً لياليـنا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ همصرنا غصون الانس دانية ... قطوفها فجنينـا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لارواحنا الا رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
ان الزمان الذي مازال يضحكنا ... أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... ان طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت اهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حياً كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... ورداً جلاه الصبى غضاً ونسرينا
لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة ... وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

وهي طويلة ختمها بقوله :

عليك مني سلام الله ما بقيت ... صبابة منك تخفيها فتخفينا

قال الصفدي في صدد ذكر هذه القصيدة « وعارض بها البحتري في قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بكاد عاذلنا في الحب يغرينا فما لجاجك في عزل المحبينا
نلحى على الوجد من ظلم فديدننا وجد نعانيه او لاح يعنينا »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من متأخري المشارقة في غرضها وفي غير غرضها وبلغ ولع صفي الدين الحلي بها ان خمّسها كلها . وأغرب ما في هذا التخميس ان صرفها به من الغزل الى الرثاء فرثى به السلطان الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة وقد حضر موته سنة ٧٣٢ وهاك تسميط البيتين الاولين فيها :

كان الزمان بلقياكم يمنينا وحادث الدهر بالتفريق يثنينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا أضحى الثنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

خلنا الزمان بلقياكم يسامحنا لكي تزان بذكراكم مدائحنا
فعندما سمحت فيكم قرائحنا بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

ومما قاله في الشكوى صدر قصيدة بعث بها في رسالة الى ابي حفص بن برد من سجنه .

ما على ظني باس يجرح الدهر و ياسو
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك أغفا ل ويؤذيك احتراس
ولكم أجدى قعود ولكم اكدى التماس
وكذا الحكم اذا ما عز ناس ذل ناس
وبنو الايام أخيا ف سراة وخساس
نلبس الدنيا ولكن متعة ذاك اللباس

وله مدح بليغ في آل جهور وآل عباد ولكنه في آل عباد أبلغ لمكان السن والتجربة فليراجع في ديوانه .

فأنت ترى مما أوردناه عليك من شعره ان معانيه مسبوقة بحيث يصعب على الباحث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن يرى فيها اختراعاً ولكنه كساها ثوباً أنيقاً من اللفظ الرشيق وخاصة الغزل والشكوى والعتاب . وقد تجد في مدحه ورثاه مسحة من الفخامة والجزالة يقارب بها ابن هانيء الاندلسي بقتضيهما المقام .

وقد كنا عزمنا على ان نذهب القول في نقد بعض شعره وبيان بعض محاسنه والموازنة بينه وبين غيره الا اننا الى هنا مللنا التطويل . وظننا ان نلم بذلك في فرصة أخرى .

على اننا معشر المشارقة انما نترجم له كاتباً لا شاعراً لمكان رسالتيه عند أدبائنا وعنايتهم بشرحهما .

(القاهرة) : احمد الاسكندري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net